الفصل الثامن

نابليون بونابرت وعصره

ولد بونابرت فى عام ١٧٦٩ فى مدينة أجاكسيو عاصمة كورسيكا الواقعة بين ايطاليا وفرنسا ، واتجهت ميوله منذ حداثة سنة الى الخشونة واعمال الحرب فبينما كان اخوته يشترون لعبا عادية ويرسمون على الجدران وجوها آدمية وحيوانات نراه يشترى بمصروفه سيفا صغيرا ونفيرا ويرسم على الحوائط صفوفا متراصة من الجند وكأنها فى حومة الوغى ، والى جانب ذلك فقد برزت عليه حب الزعامة ، فكان بونابرت يجمع رفاقه ويقسمهم قسمين يجعل نفسه على رأس أحدهما ويجعل على رأس الفريق الثانى أصلبهم عودا وقواهم بنية ، ثم يأمر كل فريق بالهجوم على الآخر فتدور معركة بالأيدى والطوب والعصى وتظل ناشبة حتى يفر الفريق الآخر من أمامه ، فيقف مزهوا يثنى على همة الشجعان من مجموعته وينهال بالضرب على فاتر العزيمة أو المقصر ثم يعود الى منزله دامى الوجه واليدين ممزق الثياب فتنهره والدته فيتلقاها باسما بقوله لقد انتصرت[1] .

وقد أظهر بونابرت تفوقا فى حياته الدراسية على أقرانه خصوصا فى علوم الرياضيات والتاريخ السياسى ، وتراجم سير القادة الزعماء ، والجغرافيا ، وبرزت عليه علامات النباهة والذكاء

وقد واصل بونابرت تعليمه حتى التحق بمدرسة باريس الحربية فى أكتوبر ١٧٨٤م ، وهناك تفتحت عبقريته العسكرية حيث بدأ العمل فى صمت ، واعتكف على المطالعة والدرس والاجتهاد ، وكان مما قرأه وتحمس له

---

(١) حسن الشريف : المآسى التاريخية الكبرى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٦ ص ١١٩ .

كتاب « العقد الاجتماعى » لجان جاك روسو ، وبعد تخرجه عين برتبة ملازم فى سلاح المدفعية ، فبرز تميزه بالجلد وقدرته على التنظيم ، واستعداده لتحمل المسئولية والقيادة ، وايمانه بأن الحق يؤخذ ولا يعطى وكان بحكم تكوينه محبا للنظام والقانون ومعاديا للفوضى ، ومن هنا وجدت فيه كل قوة تعين على التكاتف الاجتماعى عونا ونصيرا .

فلما قامت الثورة الفرنسية ، كان بونابرت من أشد المدافعين عنها وعن أهدافها ، كما كان من المتحمسين للفكر الجمهورى الثورى ، ولأفكار أدباء القرن الثامن عشر أمثال فوليتر ومونتسكيو وروبسو .

وخلال أحداث الثورة ، والصراع المرير فى فرنسا على السلطة ظهر طموح بونابرت الواسع ، خصوصا بعد أن تزوج من جوزفين[٢] التى فتحت أمامه أبواب الشهرة والمجد . وقد برزت مهارة بونابرت وقدرته على مواكبة الأحداث ، وظهر ذلك أثناء حصار طولون فى عام ١٧٩٣م وتمكنه من الاستيلاء على هذه المدينة وتخليصها من يد الانجليز .

وعندما تم اختياره قائدا لقوى الأمن الداخلى فى فرنسا أثناء حكومة الادارة تمكن من اعادة الهدوء والنظام الى فرنسا ، واكتساب ثقة الجماهير ، والقضاء على المظاهرة التى قام بها الملكيون والعناصر المحافظة ضد المؤتمر الوطنى ، كما كان السند الحقيقى لهذه الحكومة ولدستور عام ١٧٩٥ يضاف الى ذلك أنه تمكن من انقاذ الحكومة من العناصر الملكية فى عام ١٧٩٧م .

ولما كانت فرنسا محاطة آنذاك بأعداء كثيرين خصوصا بعد تصريحات زعمائها باستعدادهم لتأييد كل أمة تطالب بحريتها ، مما اعتبره البعض تهديدا مباشرا لدول أوربا الملكية مثل بريطانيا ، وروسيا ، وبروسيا فقد اعتبرت حكومة الادارة نفسها فى حالة حرب مع جيرانها خصوصا بريطانيا والنمسا ، وشرعت فى رسم خططها لمحاربتهم ، ونظرا لأن بريطانيا

---

(٢) أرملة الجنرال بوهارنيه أحد ضحايا حكم الارهاب وكان لها منزلة كبيرة فى قلوب الفرنسيين .

كانت محصنة بحريا ، ولا يقوى الأسطول الفرنسى على الوصول الى شواطئها ، فقد تركزت الجهود لشن هجوم على الممتلكات النمساوية فى ايطاليا ، فأرسلت حكومة الادارة عدة حملات الى هذه المناطق فى عام ١٧٩٦م كانت احداها تحت قيادة بونابرت الذى نجح فى أداء مهمته التى فشل القادة الآخرون فيها ، ويرجع ذلك الى قدرته الحربية الفائقة ، وتمكنه من اتخاذ القرارات فى الوقت المناسب وقدرته الواضحة على التمييز بين الممكن وغير الممكن فبعد أن وجد قواته أمام جيش مشترك من السردينيين والنمساويين تمكن من أن يعزل بينهما ، وينزل الهزيمة بالسردينيين ويفرض عليهم الهدنة التى انسحبوا بمقتضاها من الحرب متخلين عن سافوى ونيس لفرنسا ثم زحف على ميلانو ، وانتصر على النمساويين فى عدة معارك أهمها معركة ريفولى ، وتقدم بونابرت الى الحصن النمساوى الرئيسى فى ايطاليا وهو حصن « مانتوا » العظيم الذى كانت تحميه مدفعية قوية ، وتحيط به البحيرات والمستنقعات من معظم الجوانب ، واستطاع الاستيلاء عليه .

ونتيجة لذلك اضطر النمساويون فى ١٧ من اكتوبر ١٧٩٧م الى توقيع صلح « كامبوفورميو » وبمقتضاه تم التنازل لفرنسا عن الأراضى البلجيكية ، وولاية الراين ، واقامة جمهورية فى شمالى ايطاليا وأعطيت معظم الجزر الايونية لفرنسا ، وهكذا نجح بونابرت فى اخراج النمسا من الحرب ، وعزل بريطانيا التى بقيت فى الميدان وحدها مما زاد من ثقته فى نفسه ، وجعله فى نظر الشعب الفرنسى رجل فرنسا الأول .

ولما أصرت حكومة الادارة على هزيمة بريطانيا قبل توقيع اى صلح معها أعدت جيشا أطلق عليه جيش انجلترا ، ودربته على غزو الجزر البريطانية ، ولكن تفوق الأسطول البريطانى جعل ذلك المشروع ضربا من الخيال ، ومن هنا أخذت حكومة الادارة تبحث عن نقطة ضعف فى غريمتها[٣] وخلال ذلك أرسل بونابرت الى حكومة الادارة برقية يقول فيها (لأجل القضاء على انجلترا ينبغى غزو مصر) وكان بونابرت يقصد بذلك أن مصر هى المركز الخطير الذى يمكن عن طريقه تهديد مركز الانجليز فى الهند ،

---

(٣) جرانت وتمبرلى : المرجع السابق ص ١٤٨ ، ١٥٤ .

فكلفت حكومة الادارة بونابرت باعداد حملة للاستيلاء على مصر ، وطرد الانجليز من جميع ممتلكاتهم التى يستطيع الوصول اليها ، ووصلت الحملة الى مصر فى عام ١٧٩٨م ، وتمكن بونابرت خلالها من هزيمة المماليك ، كما اذاع منشوره على المصريين ، ولكن هذه الحملة كان مصيرها الفشل خصوصا بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير ، وانقطاع سبل الاتصال بين الحملة وفرنسا ، وتقطع الامدادات عن قوات بونابرت ، كما وجد بونابرت نفسه منعزلا ومضطرا الى الاعتماد على موارد مصر التى أرهقها المماليك من قبل كما فكر فى ضرب التحالف العثمانى الانجليزى ، وتوسيع ممتلكاته وذلك بالزحف على سوريا ، ولكن آماله تحطمت عند أسوار عكا ، فانسحب الى مصر مثقلا بأول هزيمة خلال قيادته لقواته .

ولما بلغته الأنباء من أوربا بهزائم بلاده وتدهور أحوالها ، وتكوين تحالف دولى ضدها بزعامة بريطانيا : عقد العزم على مغادرة مصر الى فرنسا وترك قواته تحت قيادة كليبر .

وقد وصل بونابرت الى فرنسا فى أكتوبر ١٧٩٩م ، فكانت عودته بالنسبة للفرنسيين بمثابة عودة الأمل الضائع ، ووصول الرجل المنتظر الذى يستطيع تصحيح أوضاع فرنسا ، وانقاذها من الفوضى والاضطراب فاستقبل بحماسة شديدة ، وحفت به الجماهير من كل جانب حيث ذكر الناس انتصاراته خلال حروبه فى ايطاليا ، وكان أمامه أولا التخلص من أعضاء حكومة الادارة بطريقين اما اغرائهم بالاستمالة أو استعمال القوة ، ولما لم ينجح الحل الأول لجأ الى القوة ، واستطاع الفوز بالسلطة بعد انقلاب بروميير ، وأعلن عن نوع جديد من أنواع الحكم فى فرنسا وهو النظام القنصلى .

لقد كان بونابرت يعرف حق المعرفة أن النصر وحده هو الكفيل بأن يحفظ له المركز الذى فاز به .

ولما كان لابد من اعطاء هذا الانقلاب صفة الشرعية فقد جرى تعديل الدستور حيث وضع لفرنسا دستورا جديدا وهو الدستور المعروف بدستور ١٧٩٩م ، وقد جاء هذا الدستور مطابقا لأفكار ونظريات بونابرت

فى الحكم ، ولرغبته فى الحكم الفردى ، والتأييد الشعبى المطلق له ، فجمع كل السلطات فى يديه حتى يتمكن من بناء فرنسا الحديثة ، وقد جعل بونابرت نفسه مسئولا عن انقاذ فرنسا من فوضى الصراعات الداخلية والمخاطر الخارجية لذلك وضع نفسه فوق كل الأحزاب ومن هنا قضى الدستور الجديد بوضع السلطة التنفيذية فى يد ثلاثة قناصل يتم انتخابهم بواسطة مجلس الشيوخ ، ويستمرون لمدة عشر سنوات ، وقد تولى بونابرت مركز القنصل الأول على ان يساعده فى مهمته قنصلان آخران يقوم باختيارهما بنفسه ، وكان دورهما يتركز فى القيام بدور نواب القنصل الأول . وفى ظل النظام القنصلى نعم الفرنسيون بحياة افضل ، فأعيد الاستقرار وازدهر الاقتصاد ، وتم تنظيم الجيوش ، وأعيد الرخاء لكل مرافق الدولة ، والى جانب ذلك فقد تقرر أن يتولى وضع القوانين فى فرنسا ثلاث هيئات هى :

١ — مجلس الشيوخ المحافظين وعدد اعضائه ستين عضوا يختارهم القناصل وتنحصر مهمتهم فى الاشراف على تطبيق أحكام الدستور ؛ وانتخاب اعضاء مجلس التربيون والجمعية التشريعية .

٢ — مجلس التربيون ويضم مائة عضو مهمتهم مناقشة مشروعات القوانين المقترحة .

٣ — الجمعية التشريعية وتضم ثلاثمائة عضو ومهمتهم الادلاء بأصواتهم بشأن المقترحات التى ترد اليهم من مجلس التربيون .

ولما عرض هذا الدستور على الشعب وافق عليه بأغلبية ساحقة ، وعلى الرغم من أن هذا الدستور وضع كل السلطات فى يد بونابرت تقريبا الا أن ثقة الفرنسيين فى شخصه والآمال العريضة التى علقوها عليه جعلتهم يعطونه كامل ثقتهم .

وكان من أبرز المشاكل التى أراد بونابرت حسمها هى كسر شوكة أعداء فرنسا وهزيمتهم خصوصا النمسا وبريطانيا بعد أن تطاولوا على بلاده فى غيابه فقد هاجم النمساويين الذين كانوا قد أعادوا احتلال ايطاليا ،

وأنزل بهم هزيمة ساحقة وأعاد بذلك سيطرته على ايطاليا . وقد أثـارت أخبار هذا النصر موجة عارمة من الحماس داخل فرنسا أدت الى توطيد نفوذ بونابرت السياسى .

وبذلك وقفت بريطانيا وحدها فى الميدان ، وقد حاول بونابرت تأليف قوة بحرية كبيرة فى البلطيق مكونة من الدنمارك والسويد وبروسيا والروسيا استعدادا لمحاربة بريطانيا ، ولكن الانجليز تمكنوا من تدمير هذه القـوة بهز متهم للأسطول الدنماركى ، وخلال ذلك مات قيصر الروسيا مما أدى الى انفراط عقد التحالف .

ولمـا اتضح للطرفين أن الحروب لم تنته بينهما بسهولة ونتيجـة لتعرض بريطانيا لمشاكل داخلية صعبة ولشعور بونابرت بأهمية الوصول للتفاهم مع بريطانيا حتى يتمكن من تأكيد سيطرته على أوربا كل ذلك ساعد على قناعة الطرفين بوضع حـد للصراع بينهما وبضرورة اللجـوء الى المفاوضات وانتهى الأمر بعقد صلح أميان فى ٢٧ من مارس ١٨٠٢م والذى كان من أهم نصوصه :

١ ــ اعتراف بريطانيا بحدود فرنسا الطبيعية .

٢ ــ اعتـراف بريطانيا بضم فرنسـا لبلجيكا ، وقسم من هولندا وأراضى الضفة اليسرى لنهر الراين .

٣ ــ بقاء النفوذ الفرنسى فى ايطاليا .

٤ ــ تنازل بر طانيا عن جزيرة مالطة لأصحابها الشرعيين .

٥ ــ تنازل بريطانيا عن المستعمرات التى أخذتها من فرنسـا فى هولندا وأسبانيا .

٦ ــ تعهد فرنسا بالانسحاب من مصر وإعادتها للعثمانيين وبالجلاء عن نابلى والأراضى البابوية .

وهكذا أعطى هذا الصلح مكاسب ضخمـة للفرنسيين ، وجـاءت نصوصه متفقة مع الأمر الواقع باستثناء تعديلات بسيطة ، واذا كان البعض

وقد اعتبر هذا الصلح بمثابة نهاية لعصر الحروب بين بريطانيا وفرنسا فانه فى الحقيقة لم يكن سوى هدنة مؤقتة بين الطرفين .

هذا عن المكاسب الخارجيـــة التى جلبها بونابرت لبلاده ، أما عن المكاسب الداخلية فقد عمل بونابرت على ارضاء جماهير الشعب الفرنسى بايجاد اتفاق بين فرنسا والكنيسة . وبعد مفاوضات طويلة أمكن التوصل الى اتفاق الكنكردات فى ١٦ يوليو ١٨٠١م فى عهد البابا « بيوس السابع » وبمقتضاه اعترفت فرنسا بالكنيســة الكاثوليكية وسيادتها الروحيــة مع السماح للسلطات الحكومية بالتدخل لفرض النظــام والأمن بالقــوة اذا اقتضى الأمر ، وفى مقابل ذلك اعترفت البابوية بالقوانين التى صدرت فى عهد الثورة الفرنسية والخاصة بالكنيسة على أن تقوم الحكومة الفرنسية بدفع مرتبات رجال الدين ، ويقوم القنصل الأول بتعيين الأساقفة على أن يوافق البابا على ذلك التعيين .

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية اعتبــرت تنازلا عن أحد مكاسب الثورة ، فقد كان بونابرت أبعد نظرا ، حيث أرضى جماهير الفلاحين الذين كانوا يرغبون فى التمسك بضرورة التقرب من الكنيسة .

يضاف الى ذلك ان أهم انجازات بونابرت الخــالدة وأهمها كانت وضعه للقانون المدنى الفرنسى حيث شكل من أجل هذا الغرض لجنة تضم أكبر المشرعين الفرنسيين وقد وضع بونابرت فى هذا القانون آراءه ونظرته للحياة والمجتمع من حيث تقديس سلطة الأب على أسرته ، كما اعترف هذا القانون بالزواج المدنى وابقى على الطلاق ، وضمن جميع الحريات مثل حرية الفكر والقول والعقيدة والعمل .

ويعتبر هذا القانون من أشهر الموسوعات القانونية فى العالم من حيث التركيز على المســاواة الاجتماعية والتسامح الدينى واحترام الحياة العائلية والملكة الخاصة وبمقتضاه نعمت فرنسا بتثبيت سلطــة الأب فى مجــال الأسرة كما تمتع الشعب الفرنسى بحق الملكية الخاصة . والى جانب ذلك اهتم بونابرت بقضايا التعليم ، وعمل على ايجاد الحلول المناســبة لها وخاصة فى التعليم الثانوى والجامعى ، وانشأ مدارس ثانوية رسمية تمولها

الدولة ، كما أنشأ جامعة رسمية فى عام ١٨٠٨ تدار مباشرة من قبل الدولة وأناط بها الاهتمام بالثقافة والفنون والآداب وتشجيع روح الدقة العلمية فى الادارات والمصالح الحكومية .

كل هذه الاصلاحات جعلت للقنصل الأول بونابرت من الشعبية ما جعل الفرنسيين ينادون به قنصلا مدى الحياة ، ثم امبراطورا لفرنسا على أمل أن يمنح بلاده التى انهكتها الحروب السلام والرفاهية ، ولكن كل هذه الآمال قد تبددت نظرا لأن سياسة نابليون كانت دائما تثير مخاوف منافسيه وخاصة بريطانيا .

ونتيجة لرضاء الشعب الفرنسى عن أعمال بونابرت تقدم البعض باقتراح تجديد مدة قنصليته لفترة أخرى تبلغ عشر سنوات عرفانا بفضله فى اقرار السلام ، والاصلاحات الداخلية التى اسعدت شعبه .

ورغبة فى استئثار بونابرت بالانفراد بدفة الحكم تم تعديل هذا الاقتراح بتجاوب منقطع النظير من قبل الشعب الفرنسى ومجلس الشيوخ فتولى بونابرت القنصلية مدى الحياة كما ادخلت بعض التعديلات على الأجهزة الدستورية بحيث اصبحت فرنسا تعيش فى ظل حكومة فردية . وظلت شعبية بونابرت فى ازدياد خصوصا بعد أن ازدادت المؤامرات ضده واستهرت كراهية أوربا ولا سيما بريطانيا له ونتيجة لذلك أعلنت فرنسا عن ثقتها التامة ببونابرت ومنحته لقب امبراطور الفرنسيين فى ١٨ من مايو ١٨٠٤ وذلك بعد صدور قرار من مجلس الشيوخ ، وبعد استفتاء حصل فيه على أغلبية الأصوات ، وفى حفل مهيب تناول بونابرت التاج من البابا « بيوس التاسع » ووضعه على رأسه ثم أقسم يمين الامبراطورية فى كنيسة نوتردام فى باريس ، واستمر نابليون امبراطورا من عام ١٨٠٤ الى ١٨١٥ كان خلالها أكبر شخصية سياسية وعسكرية فى أوربا ، ومن عمالقة التاريخ الكبار الذين يشار لهم بالبنان وطبقت شهرته الآفاق ، وترك طابعه على عصره والعصور التى تلته .

---

(٤) جرانت ص ١٨٣ .

نعود الى الظروف الخارجية التى أحاطت بفرنسا خلال هذه الفترة فنقول أن صلح اميان بين الفرنسيين والانجليز لم يستمر طويلا اذ سرعان ما حصلت محله حرب لم تتوقف الا بعد انتهاء معركة ووترلو حيث قطعته العلاقات بين بريطانيا وفرنسا فى مارس ١٨٠٣ على اثـر القاء نابليون القبض على بعض الانجليز ثم اندلعت نيران الحرب التى لم تقتصر عـلى الدولتين المتنافستين بل حـاولت كل منهما ربط دول أوربا بتحالفات معها لدرجة أن انغمست معظم هذه الدول تقريبا فى هذا الصراع .

وفى أعقاب ذلك اعاد نابليون احتلال نابولى وحول ايطاليا الى ملكية وراثية يحكمها ابن زوجته يوجين ، وأرسل جيشا الى هولندا ، وتوغلت قواته فى المـانيا واستولت على هانوفر التى كانت تحت التاج البريطانى مما ادى الى اضطرار الولايات الألمـانية الى محالفته ، كما وضع أمراءها انفسهم تحت حمايته . والى جانب ذلك حاول نابليون جر روسيا وبروسيا الى محالفته ولكنه لم ينجح فى ذلك .

هذا عن فرنسا اما عن الجانب الانجليزى فقد أقام ائتلافا جديدا ضد فرنسا تكون من السويد وروسيا والنمسا ، ونتيجة لاقتراب موعد المواجهة فكر نابليون فى توجيه ضربة الى بريطانيا عن طريق غزوها وقهرها فى عقر دارها(٥) وأخذ فى اعداد العدة لذلك خصـوصا بعد وقوف اسـبانيا الى جانبه ، ولكن سرعان ما اتضح له أن النجاح لا يمكن أن يكون من نصيب خطته وذلك لقوة البحرية البريطانية ، وصعوبة السيطرة على المـانش وخاصة بعد قيام الأسطول الانجليزى بمباغتـه الأسطول الفـرنسى عند « الطرف الأغر » وهزيمته .

وكرد فعل لذلك ، وخشية من عواقب الأمور وجه نابليون قواتـه الى المـانيا حيث أحرزت انتصارات رائعة على الجيش النمساوى فى أولم ulm ، فى ٢٠ من اكتوبر ١٨٠٥ أى بعد معركة الطرف الأغر بيـوم واحد فقط ، كما تمكن الفرنسيون من احتلال فينا ، وهزيمة جيشا روسـيا نمساويا مشتركا عن « أوسترلتز » ، هذا الى جانب هزيمتهم للبروسيين

---

(٥) جرانت : ص ٢٠٨ .

فى موقعة « جينا » ١٨٠٦ والوصول الى برلين ، ولما لجأ فردريك وليم الثالث طالبا حماية الروسيا ، قام نابليون بتديب القيصر اسكندر الأول وهزم الروس فى موقعة فريدلند ونتيجة لذلك طلب القيصر الصلح فعقد صلح « تليست » فى يوليو ١٨٠٧ وبمقتضاه تخلت روسيا عن أملاكها غرب نهر الألب ، كما اعترف القيصر بالتغيرات التى احدثها نابليون فى ألمانيا ، وتعهد بالانضمام اليه فى تنيفذ الحصار القارى على بريطانيا ، وفى نظير ذلك تعهد نابليون بمساعدة القيصر فى تحقيق مطامعه فى فنلنده وتركيا . كل ذلك دفع نابليون الى أن يوجه كل جهوده ضد بريطانيا التى كانت العقبة الكئود أمام كل أطماعه ، ولما كانت هزيمة الانجليز فى البحر فى حكم المستحيل فقد اتخذ الصراع مع بريطانيا طابعا جديدا كان له أعمق الأثر فى تغيير مجرى الحوادث فى أوربا فقد رأى نابليون أن قوة انجلترا تكمن فى صادراتها وبأن دول أوربا هى سوقها الرئيسى وانه من الممكن بعد أن بسط نابليون سلطانه على أوربا محاصرة بريطانيا اقتصاديا بأن يفرض عليها حصارا قاريا عن طريق اقصاء السفن الانجليزية عن جميع موانىء أوربا مما يجعل الانجليز يموتون جوعا ولذلك أصدر مرسوم برلين ١٨٠٦ والذى يقضى بفرض حالة الحصار على الجزائر البريطانية وتحريم كل انواع التجارة بينها وبين الأراضى التى تخضع لحكم نابليون أو نفوذه ، وردت الحكومة البريطانية على ذلك باتهام فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب وضربت بريطانيا الحصار على الأراضى الفرنسية . وهكذا اقصى نابليون بقوته البحرية بريطانيا عن التجارة مع أوربا فعزلت بريطانيا ببحريتها أوربا الفرنسية عن التجارة مع بقية العالم ، ومما لا شك فيه أن بريطانيا قد تأثرت من هذا الحظر الذى سمى بالنظام القارى فقد تفشت البطالة وكثرت حالات الافلاس غير انه وان كانت للأسواق الأوربية اهمية بالنسبة لبريطانيا فان باقى العالم كان مفتوحا[٦] وكان أسوأ نتائج نظام نابليون القارى من نصيب الدول الأوربية الواقعة تحت السيطرة الفرنسية فقد وجدت هولندة فى هذا النظام قضاءا تاما على حياتها التجارية كما وجدت الدول الأخرى الحليفة لفرنسا أن فى تطبق الحصار القارى على انجلترا ضررا كبيرا يمكن أن يؤدى الى موت شعوبهم جوعا .

---

(٦) جرانت : ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

كل ذلك جعل هذه الدول تفكر فى الخروج على هذا الحصار ، وكانت البرتغال هى أولى الدول التى خرجت عنه خصوصا وان حياتها الاقتصادية تعتمد فى المقام الأول على التجارة مع بريطانيا وحتى لا تحذو الدول الحليفة لفرنسا حذو البرتغال أسرع نابليون بارسال حملة الى أسبانيا فى محاولة لتأديب البرتغال ، وكان ذلك فاتحة نهاية عصره حيث اصطبغت هذه الحرب بصبغة تختلف تماما عن كل الحروب الأخرى حيث لم تقتصر الجيوش الفرنسية على محاربة الحكومات وجيوشها النظامية بل أصبحت فى مواجهة الشعوب التى اخذت تضطلع بدور تلقائى فى محاربة الغزاة . فالجيوش الفرنسية التى لم تهزم من قبل على أيدى جيوش نظامية قبل عام ١٨١٣ أصبحت تواجه جيوشا شعبية فى أودية أسبانيا وجبال التيرول مما انهك قواها بدرجة كبيرة وادى الى بث الرعب بين أفرادها ، وأوقعها فى ورطة لم تكن فى حسبانها .

يضاف الى ذلك تورط نابليون باصطدامه مع الشعور الدينى فى أوربا خصوصا بعد أن قام فى مايو ١٨٠٨ بضم أملاك البابا الى فرنسا ورد البابا على ذلك بحرمانه من غفران الكنيسة ، ثم قبض نابليون على البابا وسجنه فى بلده قريبة من مدينة جنوة مما أثار ثائرة الشعوب الكاثوليكية ضده ، وجعل البابا يرفض تثبيت الأساقفة المعينين فى فرنسا من قبل نابليون مما تسبب فى جعل ٢٧ أسقفية شاغرة فى فرنسا . وكان رد نابليون على ذلك هو اصدار قرار يخول لرؤساء الأساقفة حق تثبيت أساقفة فرنسا واعطائهم السلطة الروحية طالما أصر البابا على عناده .

ونتيجة لذلك ظهرت بارقة الأمل فى امكان تحرر أوربا من سيطرة نابليون . لقد دفعت العاطفتان الرئيسيتان عند الشعب الأسبانى وهما الدين والعزة القومية الى مقاومة الفرنسيين بعناد ، وراحت الأقاليم والمدن الأسبانية تعلن تلقائيا رفضها لحكم نابليون ، وأعلنت بريطانيا استعدادها لتقديم المعونة لكل من أسبانيا والبرتغال ، وتمكن الأسبان من الحاق أول هزيمة جدية بجيوش نابليون عند « بايلن » وأرغموها على اخلاء مدريد كما أجبروا أحد القادة الفرنسيين على التسليم بقواته المكونة من عشرين ألف جندى . كل ذلك اضطر نابليون الى الحضور بنفسه لتولى زمام

الأمور ورد هيبة الجيوش الفرنسية فاحتل مدريد وبطش بأهلها حتى دانت له العاصمة الاسبانية . ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث بدأ الاسبان حروبهم غير النظامية بطريقة ملفتة للأنظار خاصة بعد أن أظهر الرهبان والزراع منهم قدرة خارقة فى الدفاع عن بلادهم[٧] مما استنزف القوات الفرنسية ، وجعل حروب أسبانيا بالنسبة لهم وكأنها السرطان الذى يستنزف قواهم ، ونتيجة لذلك لعبت الروح القومية بين الأوربيين دورها ، فبادرت أوربا بمساعدة أسبانيا ، والانقضاض على حكم نابليون كما انتهزت بريطانيا الفرصة فأرسلت جيشا الى البرتغال لمساعدة الأسبان والبرتغاليين فى دحر القوات الفرنسية . كما واتت أوربا الفرصة للتخلص من الحصار القارى الذى فرضه نابليون عليها والذى أدى الى الركود الاقتصادى وخفض مستوى المعيشة فحاولت النمسا فى عام ١٨٠٩ استفزاز القوات الفرنسية مما أدى الى اعلان نابليون الحرب على النمسا ، ومع أن القوات النمساوية أظهرت مقاومة مستميتة ، فانها لم تستطع الصمود أمام القوات الفرنسية ، فسرعان ما حلت بها الهزائم وفتحت أبواب فينا أمام نابليون فى مايو ١٨٠٩ .

والى جانب ذلك بدأت بروسيا استعدادتها لخوض غمار حرب التحرير كما أخذ الرأى العام الأوربى يتجه الى مناواة نابليون بصورة متزايدة ، وأخذ الشعور القومى فى أوربا يقوى ويتزايد ، وظلت الحرب الاسبانية مستعرة الأوار . وقبل ان يتمكن نابليون من اخماد هذه الحركات جاءه من الشرق خطر أشد فقد قرر قيصر الروسيا الانسحاب من الحصار القارى واستئناف علاقات بلاده مع بريطانيا مما أدى الى فرط عقد التحالف بينه وبين فرنسا وبداية الاحتكاك مع نابليون الذى جهز جيشا قوامه ستمائة ألف مقاتل لغزو روسيا ، وكانت خطة القيصر لمواجهة هذا الغزو تتركز فى استدراج الفرنسيين الى داخل بلاده دون الالتحام معهم فى معركة فاصلة ولتحقيق ذلك أمر جيوشه بالتقهقر أمام القوات الفرنسية ، واخلاء المدن والقرى من الزاد والعتاد والسكان قبيل استيلاء الفرنسيين عليها .

وبعد أن زحفت القوات الفرنسية الى موسكو وتوقعت الظفر

---

(٧) جرانت : المرجع السابق ص ٢٣٩ — ٢٤٢ .

باستسلام القيصر . وجدت ن أحلامها قد باءت بالفشل فدخلت مدينة مهجورة أشعل فيها الروس النار التى أتت على المؤن والجياد ولما حاول بونابرت التفاوض مع قيصر الروسيا وعقد أنفاق للصلح رفض القيصر طلبه . ونظرا لضراوة الأحوال الجوية وقسوة شتاء موسكو اضطرت القوات الفرنسية الى الارتداد والانسحاب من روسيا فى ١٩ من اكتوبر على أمل أن تعود الى بلادها سالمة ، ولكن القائد الروسى « كوتوزوف » سد الطرق أمامها وجردها من كل امكانات الحياة ، فكان ذلك كفيلا بالقضاء على القوات الفرنسية وانتشار الأمراض بينها ، ونتيجة لذلك خسر الجيش الفرنسى الآلاف من جنوده فى أكبر كارثة حاقت به لدرجة أن قدرت خسائر نابليون على الجبهة الروسية بحوالى ١٧٠ ألف قتيل .

ونتيجة للأنباء الواردة من موسكو والخسائر التى منى بها نابليون وجدت الدول الأوربية الرازحة تحت حكم نابليون الفرصة للتنفيس عما يجيش فى صدرها ضده ، فسرت فى النفوس روح المقاومة وسرعان ما انضمت بروسيا والروسيا والولايات الألمانية الوسطى والشمالية لمواجهة قوات نابليون ، وعلى الرغم من خطورة موقف نابليون فانه لم ييأس بل أخذ فى استعادة قواه بعد نكبته فى روسيا ودعا الشعب الفرنسى الى بذل النفس والنفيس دفاعا عن أمجاد فرنسا حتى وصل عدد جنوده الى ما يقرب من النصف مليون ، وخلال ذلك حاول نابليون أن يفرض على أوربا الصلح بنصر مؤزر ، وكان يأمل فى ابقاء بروسيا والنمسا الى جانبه ، ولكن الشعب البروسى أرغم مليكه فردريك وليم على الامتناع عن مساعدة الفرنسيين ، والانضمام الى قيصر الروسيا حتى يتم القضاء على سلطان نابليون فى أوربا ، وفعلت النمسا ما فعلته بروسيا ، ومع كل ذلك استطاع نابليون أن يهزم البروسيين والروس فى معركتى « لتزن » و « بوتزن » ولكن هذه الانتصارات لم تكن لها فاعليتها حيث أن أوربا قد تغيرت ودبت فيها الروح القومية فتراجع الحلفاء المنهزمين شرقا ، ونظموا صفوفهم استعدادا لمعارك أخرى ، وجمعوا ما يقرب من مليون رجل وقرروا استنزاف قوى نابليون بالدخول مع قواته فى سلسلة من الهجمات غير الحاسمة ، ولما حاول نابليون عقد الهدنة مع خصومه طلبوا منه عودة أملاكهم اليهم فرفض وقرر نابليون أن أعداءه يستعدون الى مهاجمته

فسبقهم اليها وأحرز نصرا كاملا ولكن ضباطه فشلوا فى تعزيز خططه .
وفى ١٦ أكتوبر ١٨١٣ بدأت معركة ليبزج Leipzig أو « حرب الأمم » ودار القتال فيها طوا لثلاثة أيام ولم يكن كله فى صالح الحلفاء فقد بلغت الخسائر حوالى ١٣٠٫٠٠٠ رجل منهم حوالى ٥٠٫٠٠٠ من الفرنسيين ولما وصل الجيش الفرنسى الى الراين فى أول ديسمبر فتك المرض بأفراده فتكا ذريعا وسرعان ما استسلمت الحاميات التى تركها نابليون وراءه فى ألمانيا وعددها حوالى ١٩٠٫٠٠٠ رجل فلم يبق أثر لسلطان نابليون شرقى الراين ، وكانت الجيوش الفرنسية قد سحبت كلها تقريبا من أسبانيا وأصبح على فرنسا أن تواجه الآن أهوال الغزو التى أذاقتها للعديد من بلدان أوربا وكانت فرنسا قد سئمت الحرب ونضب معينها من الرجال ولحق الخراب بتجارتها وتجاسر البعض على النطق مرة أخرى بشعارات الثورة ورأى الملكيون أن الفرصة سانحة لعودة آل بربون الى الحكم ، ومع ذلك فقد ظل هناك فيض طيب من الولاء لنابليون اذ كان يمثل فى رأى الكثير من الفرنسيين رمز الدفاع عن أرض الوطن ، وخلال ذلك الوقت العصيب بالنسبة لفرنسا تجلت عبقرية نابليون العسكرية كقائد استراتيجى له ارادة قوية وأعصاب حديدية استطاع أن يحيل الهزيمة الى نصر ويلحق بقوات الحلفاء الهزيمة على أرض فرنسا مرتين ونتيجة لذلك أصبح نابليون شخصية شعبية من جديد ، وهب الفلاحون فى أقاليم كثيرة من فرنسا يحملون السلاح ، ودارت مفاوضات بقصد تسوية الأمور ولكن الآمال سرعان ما تبددت ولم يبق مفر سوى الاستمرار فى الحرب[٩] ، وأظهر نابليون جسارته المعهودة ، وأحرز الكثير من النجاح ولكن مركزه بدأ يتزعزع خصوصا وأن قواته كانت تعانى الكثير من الارهاق على حين كان أعداؤه يملكون احتياطيا ضخما من العتاد والرجال ، وبدأ الحلفاء يتقدمون نحو باريس ، وهم يعلنون أنهم لا يحاربون الشعب الفرنسى وانما يحاربون نابليون ومع ذلك فقد دافع الشعب الفرنسى عن بلاده دفاعا مجيدا ، وتبادلت القوات المتحاربة الانتصارات والهزائم ، وفقد الطرفان الكثير من الأرواح ، وفى نهاية الأمر تمكن الحلفاء من دخول باريس فى مارس ١٨١٤ ،

---

(٨) جرانت ص ٢٦١ — ٢٦٣ .

وعلى الرغم من ذلك فقد راودت نابليون فكرة مواصلة الحرب من خارج باريس ولكنه سرعان ما غير موقفه خاصة بعد أن وجد أن قواته قد سئمت القتال وأن الروح المعنوية بين افرادها آخذة فى الانهيار ، فوقع فى ٦ من ابريل ١٨١٤ وثيقة تنازله عن العرش لابنه على أن يكون تحت وصاية زوجته مارى لويز ، ولكن الحلفاء رفضوا ذلك ، وطلبوا من نابليون التنازل عن العرش دون قيد أو شرط ، ونتيجة للضغوط المتزايدة وقع نابليون وثيقة التنازل ، وفحواها أنه نظرا لأن الدول المتحالفة اعلنت أن الامبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة فى طريق اعادة اقرار السلم فى أوربا فان الامبراطور وفاء منه لليمين الذى أداه يعلن تنازله هو وورثته من بعده عن عرش فرنسا وايطاليا .

ونتيجة لذلك أبرمت الدول المتحالفة اتفاقا مع حكومة فرنسا ينص على نفى نابليون الى جزيرة البا Elba بالقرب من سواحل ايطاليا[١٠] على أن يقوم بحكم هذه الجزيرة وتكون ملكا له يقيم بها ولا يغادرها على أن تكون خاضعة لسيادته سياسيا واداريا ويتبعه اليها جيش صغير مؤلف من أربعمائة جندى يختارهم من بين فرقة الحرس الامبراطورى ، وقررت له مليونين من الفرنكات كنفقة سنوية تقدمها اليه الحكومة الفرنسية .

وقد حل نابليون بمنفاه فى الرابع من مايو ١٨١٤ ، حيث استقبله اهل الجزيرة بمظاهر العطف والترحاب ومع أن سقوط نابليون قد أدى الى تسوية العديد من المشاكل فانه أوجد مشكلة جد خطيرة وهى : من الذى يحكم فرنسا من بعده ، وأخيرا استقر الراى على عودة أسرة آل بربون الى عرش فرنسا متمثلة فى شخصية لويس الثامن عشر[١١] على أن يكون حكمه دستوريا ، ونتيجة لذلك عاد الحكم الملكى الى فرنسا فى مايو ١٨١٤ .

كما تم الاتفاق بين الحلفاء فى مؤتمر فينا فى سبتمبر ١٨١٤ على عودة فرنسا الى حدودها قبيل الثورة ، يضاف اليها بعض البقاع عند حدودها

---

(٩) جزيرة صغيرة واقعة شرقى جزيرة كورسيكا وكانت من املاك ايطاليا .

(١٠) شقيق لويس السادس عشر ، علما بأن لويس السابع عشر ابن مارى انطوانيت ولويس السادس عشر قد توفى فى سجنه أثناء الثورة .

الشمالية والشرقية مما يوضح أن الحلفاء لم يكونوا متشددين فى حكمهم نحو فرنسا خاصة وأنهم كانوا يرغبون فى استقرار وعودة السلام الى أوربا ، رغم كل ذلك فقد انتهز نابليون فرصة اختلاف الحلفاء فيما بينهم على تقسيم الغنائم ، وعاد الى فرنسا وسط ترحيب السواد الأعظم من الشعب الفرنسى بمقدمه مما اضطر الملك والنبلاء الى مغادرة البلاد .

وبعد أن تجمع حول نابليون جيشه القديم دخل باريس فى ٢١ من مارس ١٨١٥م وأخذ فى اعادة تنظيم قواته ثم توجه الى جبهة القتال فى ١٢ من يونيو هادفا الى توجيه ضربة قوية الى القوات البريطانية والبروسية قبل أن يتمكنا من حشد قواتهما ، وأحرز نصرا محدودا ضد البروسيين فى « لينى » .

ونتيجة لذلك أعاد الحلفاء تشكيل جبهتهم ، وقرروا غزو فرنسا مرة أخرى فقابلهم نابليون فى معركة « ووترلو » فى ١٨ يونيو حيث دارت معارك ضارية أصيبت فيها قوات نابليون بهزيمة قاسية راح ضحيتها أكثر من ثلاثين ألف قتيل وعلى اثر ذلك استسلمت باريس للحلفاء . وحاول نابليون الفرار الى أمريكا ، ولكن الانجليز تمكنوا من القبض عليه ، وقاموا بنفيه الى جزيرة القديسة هيلانة فى جنوب المحيط الأطلسى تلك الجزيرة النائية السحيقة الجرداء فى وسط المحيط حيث قضى السنوات الست الأخيرة من حياته يقاسى آلام التعنت من حاكمها السير هدسون لاو الذى كانت مهمته الاجهاز على الامبراطور والتنكيل به ، فتخير لسكن نابليون منزلا حقيرا أكلت الرطوبة بياض جدرانه واتخذت الجرذان جحورها فى زواياه وأركانه فكانت اذ جن الليل تخرج لترتع فوق سريره وتأكل كتبه وأوراقه ، ولم يدع فرصة للتنكيل بنابليون الا واغتنمها حتى مات الامبراطور المريض فى ٥ مايو ١٨٢١ وحيدا شريدا مجردا من أبسط الحقوق الانسانية ، ودفن فى نفس الجزيرة وأقيم حول قبره جنود لحراسة بقايا الميت الذى بلغ من احتقار حاكم الجزيرة له أنه لم يأذن فى كتابة اسم نابليون على القبر مع أنه الرجل الذى ظل اسمه يرهب أوربا كلها حتى بعد وفاته .

والى جانب ذلك فقد ظلت بقايا أموال نابليون ووصيته فى حيازة الحكومة الانجليزية التى رفضت أن تسلمها لفرنسا .

وهكذا انتهت قصة حياة أحد عباقرة أوربا العسكريين فى القـرن التاسع عشر بعد أن قدم لبلاده كل ما يملك من جهود ليس فقط فى النواحى العسكرية بل فى النواحى السياسـية والعلميـة والادارية والتشريعيـة وغيرها .

وقد عبر نابليون عن ذلك فى مذكراته أبلغ تعبير حيث قال « ان الذى لم يمح أبدا هو قانونى المدنى ، ومحاضر مجلس دولتى ، ومكاتباتى مع وزرائى ، فقانونى ببساطة جلب الخير أكثر مما جلبت القوانين السابقة ، ومدارسى والطرق التى ابتكرتها للتعليم أوجدت جيلا جديدا ، كما نقصت الجرائم فى عهدى وزادت فى انجلترا .... وقد أردت تأسيس نظام واحد لأوربا ، ووضع قانون واحد وانشاء محكمة نقض واحدة لها . ولو تم هذا لبات فى أوربا شعب واحد »(١٢) .

وعلى كل حال فبعد ووترلو تغيرت معاملة الحلفاء لفرنسا وفرضت غرامات حربية عليها كما تم تضييق رقعة حدودها بحيث عادت الى ما كانت عليه عام ١٧٩٠م .

والسؤال المطروح هو هل تنفست أوربا الصعداء بوفاة نابليون .

الواقع أنه بالرغم من أن دول أوربا قد استراحت من هذا الكابوس الذى أقض مضجعها نحو ربع قرن من الزمان فان رجال السياسة فيهـا ظلوا ردحا من الزمن وشبح نابليون يتمثل لهم أينما ساروا وكيفما توجهوا ، كما ظلت المخاوف تساورهم خصوصا وأن الامبراطورة مارى لويز أرملة نابليون كانت تطمع فى تنفيذ وصية زوجها بأن يرتقى عرش فرنسا ابنهمـا « الملقب بالنسر » هذا الى جانب أن عرش أسرة البربون التى عادت الى حكم فرنسا لم تكن ركائزه وطيدة .

وعلى الرغم من عودة أسرة البربون الى فرنسـا بعد ووترلو فـان الأمور لم تتغير كثيرا فى نظام المجتمع الفرنسى ، ولم يفكر أحـد فى الغاء القوانين التى صدرت أيام الثورة أو اعـادة امتيازات الملكية أو النبلاء ،

---

(١١) اميل لودنيج : نابلون — ترجمـة محمود ابراهيم الدسوقى القاهرة ، دار الكاتب المصرى ص٢٩٠ .

والى جانب ذلك ناهض العديد من الفرنسيين النظام الملكى ، وكان محل كراهيتهم خصوصا وانه أعيد الى فرنسا على أسنة حراب الحلفاء المنتصرين عليها ونتيجة لهذه الأمور كان مركز لويس الثامن عشر (١٨١٤ — ١٨٢٤) حرجا للغاية . ومع ذلك فقد استطاعت فرنسا فى عهده تنظيم ماليتها ، ودفع الغرامة الحربية التى فرضتها الدول المنتصرة عليها ، وان يسترجع مكانتها السياسية بين الدول الأوربية .

وبعد أن توفى لويس الثامن عشر خلفه على عرش فرنسا « شارل العاشر »[١٣] ذلك الملك الذى حاول العودة بفرنسا الى نظام ما قبل الثورة ، فأمر بالحد من حرية الصحافة ، وحل البرلمان ، ومنح تعويضات مالية للنبلاء المهاجرين ، مما أدى الى خلاف حاد بينه وبين الشعب انتهى باقصائه عن العرش ، وتوليه لويس فليب مكانه .

وقد قبل الملك الجديد الانضواء تحت علم الثورة الفرنسية ذى الثلاثة الوان ، والسير بمقتضى النظم الديمقراطية مما جعله يحصل على رضا الشعب الفرنسى وتأييده . وبخاصة وانه كان خبيرا بشئون الحكم ويملك من القدرة والذكاء ما مكنه من ادارة دفة الأمور بحكمة واقتدار ، ومع ذلك فقد جلب تساهله الزائد مع بريطانيا ، وعدم اهتمامه بأمر رجال الدين الى اصطدامه مع التيار البونابرتى الذى كان يتزعمه لويس بونابرت ، وأعاد فيه الى الأذهان اسم نابليون وانتصاراته وأمجاده ، والى اصطدامه أيضا مع التيار الجمهورى الاشتراكى الذى كان ينادى به أتباع سان سيمون ، ويدعو الى ضرورة تنظيم العمل والغاء مبدأ التوريث ، واصلاح أحوال الطبقات ولما قاومت الحكومة هذه المطالب وجدت نفسها أمام عصيان شعبى ، مما دفع الملك الى التنازل عن العرش والهرب الى انجلترا .

وخلال ذلك برزت فكرة الجمهورية على مسرح الأحداث وتزعمت باريس الدعوة اليها .

وفى الاستفتاء الشعبى الذى عقد فى العاشر من ديسمبر ١٨٤٨م لانتخاب رئيس الجمهورية نال لويس بونابرت معظم أصوات الناخبين ، ونتيجة لذلك دخلت فرنسا مرحلة جديدة من حياتها .

---

(١٢) تم غزو الجزائر فى عهده .